الإمبراطور الفيلسوف

١

فى اليوم السابع من شهر مارس للسنة الميلادية ١٦١ مات الإمبراطور الرومانى الأروع النبيل أنطونينوس بيوس بقصره فى لوريام ميتة هادئة وقوراً جديرة بأن تختم بها حياة كحياته المثالية الرفيعة . ولما شعر بدنو الأجل ، ووشك الرحيل ، أحكم تدبيره ، ونظم شؤون أسرته الداخلية ، وأصدر أمره بنقل تمثال الحظ المصنوع من الذهب من حجرته إلى حجرة ابنه المتبنى مرقس أورليوس . وكانت التقاليد المرعية تقضى بوضع هذا التمثال فى حجرة الإمبراطور الجالس على العرش . وأغمض الإمبراطور الصالح بعد ذلك جفنيه ، وودع عالم الدثور والفناء . وقد شمل الحزن عليه الإمبراطورية جميعها ، وأقيم له فى كل قلب مأتم ، وتبارت شتى طبقات الأمة الرومانية فى الإحتفال بمنعاه وتكريم ذكراه ، والإشادة ببره وتقواه ، والتحدث عن خلاله الكريمة ، ومناقبه البارعة ، وكيف أنه ولى الحكم فأحسن السيرة ، ووطد الدولة ، ونشر الأمن والطمأنينة ، ولم يظلم أحداً ، ولم تسفك فى خلال حكمه قطرة واحدة من الدم ! مما بعث مؤرخ الدولة الرومانية الكبير جيبون على أن يقول فى خلال الحديث عن حكمه[1] « يمتاز حكمه بالميزة النادرة ، وهى تزويد التاريخ بمواد

---

(١) صفحة ٨٧ من المجلد الأول من كتاب جيبون عن اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها طبعة . The World Classics

وكاد يكون من حق أنطونينوس بيوس أن يظفر بالسبق والتبريز فى حلبة جد قليلة ، والتاريخ فى الواقع لا يزيد إلا قليلاً على تسجيل جرائم البشر وحماقاتهم وكوارثهم » .

الفضائل الإنسانية ، والمحاسن الملوكية ، لولا أنه اختار خلفاً له قد استطاع أن يساميه فى الفضائل والمناقب ، ويرجحه بالذكاء الخارق ، والشخصية المحببة الجذابة .

وقد كان أنطونينوس رقيق القلب ، جم العطف ، كثير البشر والطلاقة والإيناس ، وكان فيلسوفاً دون أن يدعى ذلك ويفخر به ويتعالى على الناس . وكان مرقس فيلسوفاً مفكراً نظرياً مخلص السعى ، عف النفس ، قد إبتلى بهذا المرض الغريب والداء العضال وهو داء البحث الذى لا يهدأ فى نواحى النفس ، والكشف عن ميولها ودوافعها ، ورفع النقاب عن أوهامها وأضاليلها ، وهو داء يقربه من أبناء العصر الحاضر ، وينبت له المودة فى قلوبهم ، ويجعلهم يعطفون عليه ، ويعرجون على ذكراه ، ويعجبون بشخصيته ، ويفيدون من حكمته ، ويستريحون فى ظله الظليل ، وينهلون من نبعه العذب الصافى .

ومثل مرقس أورليوس ممن يشرفون الإنسانية ، ويظهرون لنا مراقى السمو التى يمكن أن يبلغها الإنسان على ضعفه وعجزه وقصوره ، وليس أدل على ما قد يرتفع إليه الإنسان فى مدارج النبل والعظمة الأخلاقية من تلك الأمثلة الطيبة والنماذج الصالحة التى تأتى من هؤلاء الذين وضعهم القدر فى أرفع الدرجات وأسمى المنازل ، فمرقس أورليوس كان حاكم أعظم إمبراطورية عرفها التاريخ فى عصر من أزكى العصور ، وكانت الدنيا عليه مقبلة ، وعنه راضية ، وبه مغتبطة ، وكانت فى يده أزمة البسط والقبض ، وأعنة الأمر والنهى ، ومع

ذلك الجاه العريض ، والنفوذ العظيم آثر حياة الزهد والورع ، وإختار طريق الحكمة والفلسفة ، وغض جفنيه عن كل ما يريب ، وشمس وتأبى على الدنايا والمغريات والنقائص والهفوات ، وظل فى جلبة الملك ولجبه محتفظاً بخلقه القويم ، ونفسه العالية .

ولست أزعم أن هذا الرجل العظيم كان معصوماً من العيوب ، موقى من العثرات ، فإن الكمال فى هذه الدنيا لم يكتب لأحد ، ولم يرزقه إنسان ، وإرنست رينان المؤرخ الكبير وهو من أشد المؤرخين والفلاسفة تحمساً له وعطفاً عليه لم يعفه من اللوم والنقد والتفنيد ، ولكن الذى نستطيع أن نؤكده فى ثقة واطمئنان وقد قبله أنصاره وخصومه أنه من الأفراد القلائل فى التاريخ الإنسانى الذين إقتربوا من الكمال وكانوا قدوة صالحة ومثلاً عالياً .

وقد نشأ أورليوس فى أسرة الأنطونينوسيين ، وكانت الحكمة والفضيلة وراثيتين فى هذه الأسرة النبيلة ، وكان حكم الأباطرة نرفا وتراجان وهادريان وأنطونينوس بيوس من العهود الصالحة المزدهرة القليلة النظير فى تاريخ الأنسان ، فقد كان هؤلاء الأباطرة نزاعين إلى الإصلاح ، مقدرين لما عليهم من تبعات ، وقد قاموا بأداء واجباتهم على خير الوجوه ، وكان كل فرد منهم يرى أن وظيفته العالية لم تخرج عن كونها نوعاً من أنواع الخدمة المدنية ، فلا يلقى باله إلى إحاطة العرش بهالات النور والبهاء ، ومظاهر العظمة والأبهة والجبروت ، ولا يسترهب الناس ولا يستذلهم ، وإنما يتحرى جهده إسعادهم ، والأخذ بيدهم ، والنهوض بهم ، فلا يعنيه ويهمه ولا يقيمه ويقعده سوى صيانة مصالحهم . وتدبير الرخاء لهم ، وتحرى العدالة فى الأحكام ، وقد نفى هؤلاء الأباطرة الفلاسفة المتشككون عن الملك ذلك الغموض والخفاء ، والروعة

الكاذبة ، والقداسة الزائفة ، واحترموا سلطة السناتو ، ورفعوا كلمته ، وإنقادوا لأوامره .

وفى مثل هذا الجو المشبع بالإعتدال والحكمة درج مرقس أورليوس ، وقد رآه الإمبراطور هادريان وهو فى الثامنة من عمره ، فأعجب به ، واسترعى نظره محياه الهادئ الحزين ، وكراهته للكذب والخداع ، وإيثاره الصدق والأمانة .

وقد قضى طفولته وبواكر أيامه فى الريف بين أحضان الطبيعة ، وتلقى دروس البلاغة والفلسفة وسائر ضروب المعرفة السائدة فى عصره على أحسن مفكرى زمانه وخير أساتذته ، ومال منذ نشأته إلى مذهب الرواقيين ، وأخذ نفسه بقوانينهم الصارمة ، فنى الثانية عشرة من عمره كان يلبس الثياب الخشنة الغليظة ، ويأبى إلا أن ينام على ألواح من الخشب عارية مجردة ، وإقتضى الأمر تدخل والدته لتنصحه وتلح عليه فى وجوب وضع بعض الفراء فوق تلك الألواح الخشبية إبقاءاً على صحته وترفقاً به ، وكان يعيش معيشة الراهب الذى يقسم وقته بين العمل المتصل والتأمل والتفكير المستمر : وكان وجهه شاحباً لا تظهر فيه نضرة النعيم ولا ترف الملك ، وكان يبدو فى عينيه أثر الإجهاد والتعب ، ولم يكن يعنيه من أمور دنياه سوى القيام بالواجب ، وأتباع الوصايا الأخلاقية .

ومثل هذه النشأة الجافة الصارمة الشديدة الوطأة على الطبيعة الإنسانية لا تسفر فى أغلب الأوقات عن خير كثير ، وقد ينتهى هذا الشظف والتقشف إلى العبوس والإربداد ، وتحجر القلب ، وتبلد العواطف ، والحذلقة البغيضة ، والتفيهق الممقوت ، فما الذى صان مرقس أورليوس عن ورود هذا المورد الراكد العطن والضرب فى الصحراء القاحلة الجدبة ؟

تفسير ذلك هين ، فقد كان ملئ عينيه مثل حى للفضيلة الإنسانية وهو

الإمبراطور أنطونينوس بيوس الذى كان يجله ويحترمه ، وقيمة الإنسان الأخلاقية رهن بقدرته على الإعجاب والتقدير ، فرقس أورليوس بلغ ما بلغه من السمو الأخلاق والرقى النفسى لأنه رأى إلى جانبه أجمل مثل من أمثلة الحياة الكاملة الفاضلة ، وكأنه كان يشير إلى ذلك حينما كتب فى تأملاته يقول[1] «حاذر حتى لا تصبح قيصراً ، وتصطبغ بتلك الصبغة ، وهذا من الأمور التى يسهل الإنغماس فيها ، فانظر لنفسك ، وكن صريحاً مخلصاً مستمسكاً بالفضيلة والتواضع ، ملتزماً الجد والوقار ، وتحر العدل والصلاح ، وترفق بالناس ، وعاملهم باللين ، واجهد فى أداء الواجب ، وأعمل على أن تكون كما ترضى لك الفلسفة ، واحترم الآلهة ، وأدفع السوء عن البشر ، وهذه الحياة قصيرة المدى ، وكل ما تستطيع أن تغنمه من فوائدها هو التقوى والأعمال النزيهة الخالصة ، وليكن قدوتك فى أعمالك جميعاً أستاذك أنطونينوس ، فتشبه به فى اتباعه الدائم لما يوصى به العقل ، وسيره على منهج واحد فى مختلف الظروف والأحوال ، وطهارة نفسه ، وهدوء نظرته ورقة روحه وعذوبتها ، وإحتقاره للشهرة والمظهر الكاذب ، وحرصه الكريم على أن يتعرف عمله ، ويستجلى أسراره ، ويخلص إلى دخائله ، وأنظر كيف كان لا يغادر موضوعاً من الموضوعات إلا بعد أن يوسعه بحثاً وتنقيباً ويحيط بكلياته وجزئياته ، ويستوعبه إستيعاباً ، فلا تند عنه شاردة ولا واردة ، وكيف كان يحتمل ما يوجه إليه من اللوم والتأنيب الظالم دون أن ينبس بكلمة ، وكيف كان يتأنى ولا يتعجل فى عمل أى شىء ، وكيف كان يسد أذنيه عند سماع أقاويل السوء ، وكيف كان ينظر إلى أعمال الناس وأخلاقهم ويدرسها دراسة منزهة عن سوء الظن والرغبة فى إستنباط العيوب والتهدى إلى المساوئ والميل إلى السفسطة والمغالطة ، وكيف

---

(١) الجزء السادس الخاطرة رقم ٣٠ من كتاب التأملات .

كان يراعى الاقتصاد فى بيته وفراشه وملبسه وطعامه وخدمته ، وكان دأبه الصبر والجلد والعكوف على العمل حتى المساء ، وتذكر حبه لأصدقائه وكيف كان يحتمل المعارضة ، والسرور الذى كان يلم بنفسه حينما كان يأخذ بالرأى الذى يفضل رأيه ، وتقواه التى لم يكن بها أدنى أثر للإعتقاد بالخرافات ، فكر فى ذلك كله ، وتشبه به فى هذه الصفات جميعها حتى تلقى ساعتك الأخيرة بنفس مطمئنة وضمير خالص كما لقيها » .

على أن القدوة الصالحة والمثل الحى لم يكونا كافيين لتجنيب مرقس أورليوس الخشونة والجفاف والعنف الذى تسوق إليه مثل هذه الفلسفة الزاهدة المترفعة ، وإنما يضاف إليهما سجاحة الخلق وسماحة النفس التى لم يكن لها نظير فى الرقة والعذوبة والرحمة والحنان . وقد كانت قسوته مقصورة على نفسه ، وقد قضى حياته فى دراسة كيف يقابل الإساءة بالإحسان ويلقى الشر بالخير ، وبعد إحدى تجاربه الحزينة للإلتواء البشرى جلس فى المساء ليكتب ما يأتى « إذا استطعت أن تصلحهم ، وتقوم إعوجاجهم ، فافعل ، فإذا أعياك ذلك فاعلم أنك أوتيت الرحمة لتشملهم بها ، والآلهة أنفسها تتولى هذه الكائنات برحمتها ، وتعينها على نيل المال والمجد والصحة ، فانعم وتفضل كما ينعمون ويتفضلون » .

وفى يوم آخر يظهر أن الناس أفرطوا فى الإساءة إليه فقد كتب فى سجله الخالد حينما ثاب إلى نفسه فى هدأة الليل « هكذا نظام الطبيعة ، والناس من هذا الطراز لا يستطيعون العدول عن ذلك ، وليس لهم فيه حيلة ولا عنه مذهب ، وتعجبنا من ذلك يشبه دهشتنا حينما نرى شجرة التين وهى تحمل التين ، وتذكر أنك أنت وخصمك بعد فترة جد قصيرة سيمضى بكما الموت ، وسرعان ما يغمر إسميكما النسيان» .

وكانت خواطر العفو الشامل والغفران العام كثيرة الطواف بنفسه ، وفى لحظات نادرة كانت تعلو هذا العطف السمح بسمة خفية كما فى قوله «خير وسيلة للإنتقام من المسيئين هى ألا نصبح مثلهم» .

وقد وجه إلى نفسه فى ذات يوم هذا اللوم «لقد نسيت رابطة القرابة المقدسة التى تربط كل إنسان بالنوع البشرى ، وليست هى قرابة الدم والولد ، وإنما هى قرابة المشاركة فى نفس الفهم والإدراك ، وقد غاب عنك أن الروح العاقلة لكل إنسان مستمدة من الله ، وأننا لا نملك مالنا ، فأطفالنا وأجسادنا وأنفاسنا كلها مستعارة من السماء ، كل ذلك على ما يظهر قد نسيته» .

وكان فى حياته العملية سهل الجانب ، دمث الأخلاق ، تغلب عليه البساطة مثل أغلب الناس الطيبين ، وكان جم التواضع بغير رياء ولا تظاهر ولا إدعاء أو مغالطة للنفس ، ومن حكمته البارعة أنه كان يعتقد أن الرجل الشرير يشقى بما فى نفسه من الشر ، وأن الشرير شرير على الرغم منه ، وكان يرثى لحال الذين لا يشبهونه فى أخلاقه ، ولا يسيرون فى الناس سيرته ، ولكنه فى الوقت نفسه كان يعتقد أنه ليس من حقه أن يفرض على الناس مذهبه ويلزمهم إقتفاء أثره ، والإهتداء بهديه .

ولم تغب عن عينيه الفاحصتين وخاطره الجوال سخافة البشر وخستهم وضعف نفوسهم ، ولكنه كان يأبى له كرم أخلاقه وصفاء نفسه إلا أن يغض الطرف عن ذلك ، ويغالط فيه نفسه ، وربما كان هذا التعامى المقصود المتعمد من لوازم النفوس النبيلة ومن عيوبها . ويقرب من ذلك قول أبى تمام :

ليس الغبى بسيد فى قومه   لكن سيد قومه المتغابى

وأصحاب هذه النفوس الكريمة الخيم يرون أن الدنيا ليست على ما يريدونه لها من الكمال فيخدعون أنفسهم ليروها على الصورة التى يريدونها لها ، وهذا

النوع من التباله يضايق فى بعض الأحيان قراء تأملات مرقس أورليوس ، ودارسى سيرته وحياته ؛ وهو فى تأملاته يثنى على أساتذته ، ويشيد بقدرتهم ، ويغالى بقيمتهم ، ويجعلنا نظن أن كل من حوله من ذوى الفضل والرجحان ، ولكنه حينما يستدفى الكواكب لينظمها عقود مدح لأخيه فى التبنى وشريكه فى الحكم المدعو لوسياس فيراس – ذلك الرجل السادر الخليع – يثير تعجبنا ودهشتنا ، لقد كان الإمبراطور الفيلسوف الصالح يستهدف للوهم حينما يحمله قلبه الطيب ونفسه الخيرة على أن يخلع صفاته الكريمة على قوم غير جديرين بها ولاهم أهلاً لها .

ولا نزاع فى أننا هنا تلقاء نفس كبيرة ، وقلب عظيم ، فهل كان عقله عظيماً كنفسه كبيراً كقلبه ؟

يؤكد لنا رينان أنه كان عظيم القلب والعقل ، ورينان من أعرف الناس به وأقربهم إليه ، ويستدل على ذلك بقدرته الفائقة على النظر إلى أبعد أعماق هاوية الواجب ، والغوص فى مسارب الوعى ومجاهل الضمير ، وإن كان ينكر عليه عدم إجترائه وتردده فى إنكار ما هو فوق الطبيعة ، ويقول رينان «إننا نفهم غرضه وندرك مغزاه حينما يتحدث عن فظاعة الدنيا إذا خلت من الله والعناية الإلهية ، ولكن الذى لا نستطيع أن نفهمه الفهم كله هو كيف إستطاع أن يتحدث حديثاً جدياً عن تدخل الآلهة فى شئون البشر فى حالات خاصة من حالات تدريب الإرادة ؟» .

ويرى رينان أنه لا يستطيع أن يفسر ذلك النقص فى ثقافة مرقس أورليوس إلا بضعف تربيته العلمية ، على أن الذى يجب أن نسلم به هو أن مثل هذا العيب ليس له أهمية تذكر ، فقد كان إيمانه بالحياة الأخلاقية قائماً على إيمانه بالعقل والطبيعة ، وهو فى ذلك عصرى للغاية .